اعلام العرب
(١٢٤)

الدكتور نجيب محفوظ

رائد أطباء النساء والولادة

د . محمد محمد الجوادى

الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٦

الاخراج الفنى

راجية حسين

اهـــداء

الى اخى الدكتور ســامح خميس هــلال

عرفانا بفضــله ، وتقــديرا لخلقــه ، واعتزازا بشخصــه الكريم .

مقدمة المؤلف

هذا كتاب عن الدكتور نجيب محفوظ باشا اول أطباء النساء والولادة فى بلادنا ، يواصل به المؤلف سلسلة من كتبه عن أصحاب الفضل فى التقدم الهادىء الذى أصاب هذا الوطن والتى انتظمت من قبل كتبا لاقت التقدير والاقبال عن الدكتور محمد كامل حسين والدكتور على مصطفى مشرفة والدكتور أحمد زكى والمشير احمد اسماعيل والدكتور على ابراهيم والدكتور سليمان عزمى والشهيد عبد المنعم رياض .

ومن نافلة القول ان كتابة هذه الكتب لم تكن بالمهمة اليسيرة ، ولا بالمهمة المكررة فكل من هؤلاء متفرد فى كثير مما اتسمت به حياته .. على أن الصعوبة كانت تختلف من كتاب لآخر . وفى كتاب نجيب محفوظ تمثلت الصعوبة فى كم هائل من التقاريظ والتكريمات عن الرجل على حين ندرت الكتابات عن مراحل وصوله الى العظمة فى كل جانب من جوانبها .

ومن أصعب الأمور على الكاتب الدارس ان يجد نفسه فى مثل هذا المناخ الذى يتيح له مونولوجا من الحديث من دون ان يتحداه ديالوجا بين الوجوه المختلفة للعملة الواحدة .. بل قد يكون هذا هو اصعب ما واجهته فى كل ما كتبت .. هل تعرف الصعوبة التى يلاقيها الذين يمشون على الحبل المشدود حتى يصلوا بسلام .. فلا تسمع عنهم الا الخير . هكذا كان محفوظ باشا الذى لم يكن له ـ على الأقل فيما بقى لنا الى اليوم ـ ذلك الصراع الشديد فى خضم الحياة بما فيه من عداوات ومبالغات فى الحب والانتقاد وانما كان من الذين « لا يعاديهم أحد » .. وهو شىء جميل حقيقة ولكنه ليس موطن العظمة على اى حال ، وخصوصا فى نجيب محفوظ .

كان على المؤلف اذن ان يكون كيشوتيا او ديكارتيا حين يعالج الكتابة عن رجل من هذا الطراز ، فاما ان يختلق له معارك ويخوض به فيها ، واما ان يتشكك فى كل ما ترك نجيب محفوظ ليصل الى تقدير آثاره حق قدرها .

ولم يكن هذا ولا ذاك فى وسع المؤلف طيلة السنوات الست (١٩٨٠ ـ ١٩٨٦) التى امتدت طوالها كتابته لهذا الكتاب مع انه قد يكون من المستحيل ان يصدق احد ان كتابة هذا الكتاب الصغير التى لم تنته الا فى ١٩٨٦ بدأت عام ١٩٨٠ !

هذا الكتاب اذن ليس نتاج حالة نفسية واحدة ولا متقاربة ، وانما فيه صورة من طالب طب يدرس مقرر النساء والولادة حين كان فى السنة الرابعة على اساتذته الكبار من تلاميذ مدرسة نجيب محفوظ .. ثم يدرس

مقررات غيرها حتى ينال الباكالوريوس ، ويمارس العمل طبيبا تحت التدريب (امتياز) ثم طبيبا مقيما (نائبا) لفرع آخر غير الذى كان نجيب محفوظ رائده .. وفى الكتاب أيضا صور من هذا الشاب يستقبل الدنيا العملية ، ثم بعد أن استقبلها بالفعل .. وفيه صورة من هذا الشاب يصيبه تقدم الشباب بشىء من الحرص على الشباب نفسه فيما يكتب وفيما يفكر ، وفيه بعد ذلك كله صورة واضحة لآراء نمت ، أو كان من المفروض أن تنمو ، ولمعلومات فى ذات الموضوع تكاملت أو حتى تراكمت .

ليس هذا باعتذار عن روح متناسق قد يفتقدها هذا الكتاب ، فقد لا يزعم المؤلف انه يفخر فى هذا الكتاب بشىء اكثر مما يفخر بهذا الروح المتناسق .

***

كان نجيب محفوظ عالما عصاميا علم نفسه فى وطنه وخرج من التجربة بأعظم ما تكون الخبرة والعلم معا ، واتيح له طول فى العمر مكنه من انجاز كثير من العمل العلمى الجاد الذى رفع من قدره داخل حدود وطنه وخارجها .

ومع هذا فان نجيب محفوظ يعد بلا شك أبرز دلالة على عظمة الحضارة الاسلامية التى مكنته — كما مكنت أسلافا له فى القرون الخوالى — من أن يلعب لها هذا الدور الرائد والبارز والخالد فى آن واحد .

كان نجيب محفوظ قبطيا من نسيج المجتمع المصرى ، كانت صلته التاريخية والحقيقية بهذا المجتمع أعمق كثيرا جدا من صلة كثير من افراد طبقات وفدت على هذا المجتمع

بحكم ظروف الدولة العثمانية فى أواخر عهدها ، ولم ينفصل محفوظ ابدا عن هـذا المجتمع حتى بعد ما صارت له مكانته الدولية ، وتهيأ له من رغد العيش ما يمكنه من حياة يومية أوربية الروح وان كانت مصرية المكان ، ولعل الأعظم من هـذا أن محفوظ باشا لم ينفصل عن المقومات الحقيقيـة للحضـارة التى كان هو واحدا من اعلامهـا (ومن ثمارها ايضا) .. والدلائل على هـذا كثيرة لعل ابرزها هو ذلك التراث العلمى الرفيع الذى تركه نجيب محفوظ فى لغـة عربية رفيعة المستوى فى كل ما أمكنه أن يكتب فيه من فروع تخصصـه .. وكان فى وسـع محفوظ أن ينصرف فى مؤلفاته الى (الرطانة) بالانجليزية فحسب ، ولكنه كان فى الواقع يدرك حقيقة دور العالم الوطنى الرائد لأنه كان ذلك الرجل فعلا .

***

ولعل من هـذه الدلالات ايضـا أن نجيب محفوظ استطاع ان يقنع هذا المجتمع المصرى المحافظ المتدين بطبعه وطبيعته وطباعه بدور محدد للمرأة فى النظـام الطبى بدءا بقصر التمريض عليها وامتدادا الى تثقيف الدايات والمولدات والقابلات ، والى مشاركة فعالة (لأسرته) فى الخدمـات الاجتماعية البناءة .. ولم يكن محفوظ وهو يؤدى دوره فى هذه الناحية بالسياسى يكثر من التصريحات ، ولكنه كان ذلك السياسى الآخر الذى يغير فى صمت متخذا من العقول التى أقنعها ، والقلوب التى أحبته ، والفكر الذى ميزه به الله أدواته الى التغيير الهادىء المستقر الذى لايمكن الانقـلاب عليه بعد ذلك .

لم يؤسس نجيب محفوظ مدرسة من الاطباء فحسب ، ولكنه أسس مدرسة أخرى موازية من المولدات والممرضات، ولم يؤد دوره فى الخدمة الطبية فى كلية الطب فحسب ولكنه تعداها الى خارجها فى كثير من المستشفيات الخاصة ، ولم يمارس فنه فى أسرة المستشفيات فحسب ولكنه خرج به الى وحدات صحية موازية للمستشفيات ترفع عنها العبء .

***

صاغ نجيب محفوظ خبرته الاكلينيكية الطويلة فى اطلس كبير هو الى اليوم مفخرة له ولجامعته ولوطنه ، وعرضها فى متحف كبير هو الى اليوم ايضا مفخرة له ولجامعته ولوطنه ولتخصصه أيضا ، وترك من التراث العلمى آثارا تستحق التقدير لما فيها من جهد وصدق .. لا أبعد عن نفسى وقلمى ذلك الدافع الملح الذى يدفعها الى أن تطلع الناس على تعبير محفوظ فى تسمية الأجنة ناقصة النمو « بالمتلهوجة » .

***

كان نجيب محفوظ علما فى زمن كانت بلاده تجاهد بين علمين ، علمها وعلم امبراطورية لا تغيب عنها الشمس ، واستطاع نجيب محفوظ أن يكون نموذجا للرجل الذى أفاد واستفاد من الانجليز فى احترام متبادل ، كان بجهده يضع هؤلاء بحيث لايمكن لهم الا ان يقدموه على انفسهم فى ديارهم، ولم يكن هذا بالانجار الهين ، ولكنه كان بالطبع جهد طراز ليس من الصعب على طائفة كثيرة من المصريين أن يكونوه .

كان محفوظ باشا واحدا من هؤلاء بالطبع ، وواحدا من أبرزهم بلاشك ، وكان معه اعلام آخرون بادلوه وبادلهم التعاون والاحترام حتى وان لم يلتقوا ابدا وجها لوجه ـ وصاغوا جميعا بتعاون لم يكن له ميثاق مكتوب تجربة لمصر الحديثة فى وضع اقدامها على طريق التقدم والارتباط بالعلم بعد ثوراته المتتالية والارتباط بالعالم من خلال العلوم والعلماء .

وجاء جيل تال آثر أن يرتبط بالعالم وحركات التحرر فيه ، وان يرتبط من خلال هذا بالعلم فى هذه الدنيا .

ثم اشرقت علينا شمس ـ لا تغيب الا لتشرق ـ فاذا نحن بين الأمرين ، لا ندرى هل نبدأ بالعلم ثم ننفتح على الناس بما نعرف وهم يسبقوننا أم ننفتح على من يعرفون فتأتينا المعرفة وقد سلكت سبيل الاستطراق فى الأوانى !

وقد تكون المفاضلة بين هذين البديلين من أصعب الأمور واعقد الرؤى ، ولكن الذى لا جدال فيه أن صياغة المأزق الذى نحن فيه اليوم على هذا النحو من التبسيط الشديد ليست تبسيطا بقدر ما هى تعبير عن وضوح الرؤية فى الفرق بين نور الشمس ونور القمر .. وهذا الكتاب ليس الا محاولة لتدريب العين ـ عين المؤلف قبل عين القارىء ـ على التمييز بين هذين النورين .

***

وهذا رجل ليس له من المقومات الأجنبية شىء على الاطلاق فى حياته كلها .. وقد خرج الى الوجود وكاد أن يدرج فى عداد من لا وجود لهم .. ولم تكن حياته فرصا بقدر ما كانت جهادا .. ولم يلق فى تعليمه العالى تعليما ممتازا

ولا شبه ممتاز ، ولا لقى بعده تدريبا مبرمجا ولا شبه مبرمج ، ولم يكن له استاذ بالمعنى المعروف ، ولم يكن له تخصص كالاف التخصصات الموجودة اليوم .. ومع هذا بلغ ما بلغ ... ولم يكن فى هذا وبعد هذا وحيد عصره ولكنه كان كما اسلفنا واحدا من امثلة كثيرة لطراز ممتاز .

وهذا كتاب لا يفعل الا ان يروى كل ذلك فى تنظيم وصدق ، وأن يستعرض التجارب فى دقة وانصاف ، وان يجرد الأمجاد من بهرجها ليظهر معدنها الذى هو انفع من مظهرها وان يرتب ذلك كله على النحو الذى يليق بتاريخنا الحقيقى (أو الأحق) وهو التاريخ العلمى .

فاذا خرج القارىء بعد قراءة هذا الكتاب ببعض ما يساعده على الاختيار بين الانفتاح على العلم وبين الانفتاح على من عندهم بعض ثمار العلم فقد نجح المؤلف .. واذا لم يكن من نصيب المؤلف النجاح فى هذا فيكفيه ساعتئذ أن القارىء قد استمتع بقصة نجاح حقيقية .

***

يتناول الباب الأول من هذا الكتاب حياة نجيب محفوظ .. هل يعيد المؤلف عبارته التى تعبر عن منهجه فى كتابة مثل هذا الباب فيقول « كما أراد لها الله ان تكون » .. ولهذا فان هذا الباب يبتدىء من عام ١٨٨٢ وينتهى عند آخر تكريم رسمى حظى به نجيب محفوظ يوم منح الرئيس السادات اسمه (مع اسم على باشا ابراهيم) قلادة الجمهورية فى عيد الطب الأول (١٩٧٩) .

ولا يجد المؤلف حرجا فى ان يتضمن هذا الباب بعض

الفقرات التى تصـــور بيئة ـ قد تباعدت بعض الشيء عاشها هذا العالم الجليل .

***

ويتناول الباب الثـانى شخصية نجيب محفوظ ، فيحاول المؤلف أن يستعرض كل ما أمكنه من نواحى العظمة فى هـذه الشخصية العصامية التى آمنت بالعمل ، وبقيمة العمل الهادىء ، مع انه لم يكن بعيدا عن الأضـواء بعد الرهاب .. وآمنت بالبعد عن الغرور .. وكيف كان هـذا الرجل قدوة بالفعل .. ويتحدث هذا الباب عن ذلك السلام الداخلى الذى كان بين نجيب محفوظ وبين نفسه ، وبينه وبين الناس وكيف اكتملت شخصيته ، وكيف استقام فى حياته ، وكيف واظب على خطاه فى سبيل مجده ، وكيف احترم وقته ووقت الناس ، وكيف وفق بين ما يمليه عمله على وقته ، وما يؤمله هو من وقت للبحث العلمى .. وكيف كان حريصـا على صورته عند الناس ، وعلى صورته عند نفسه ، وكيف اتخذ لنفسه مثلا عملية من الروحانيات وكيف اعتز بأصوله وفروعه الى آخر تلك الطائفة من القيم الهامة التى سادت حياة عالمنا الكبير .

ويعرض الباب الثالث شخصية العالم فى نجيب محفوظ طبيب امراض النساء والولادة وكيف تنامت هذه الشخصية حتى لعبت دورها فى الريادة الحقيقية . ويضـم هـذا الباب بالطبع بعض آراء زملاء الرجل فى هذا الشأن .

***

ويتناول الباب الرابع قدرات نجيب محفوظ البيانية ، وهو صاحب تجربة هامة فى كتابة اثر ادبى عن حياته التى لم تكن حياة اديب ولا سياسى ولكنها كانت حيـاة مهنى ، وكيف افلح فى هـذه الحياة ! ، وفى رؤيته لتجربته فى هذه الحيـاة ! ويحـاول الكتـاب بالطبع أن يعرض برؤيـة مبسطة ـ لا ترقى كثيرا الى كل مقومات النقد العلمى ـ تحليلا لقدرات محفوظ البيانية التى كانت بلا شك تعبيرا عن شخصية علمية مكتملة .

***

وفى البـاب الخامس حديث موجز عن آثار نجيب محفوظ العلمية ، وعن تقدير العالم لها .. ويتطرق هـذا الباب الى بعض التفاصيل فى تاريخ هذه الانجـازات التى كان محفوظ نفسه يقدم رجلا ويؤخر اخرى وهو يبذل جهده فيها ومن أجلها .

أما الباب السادس فهو الببليوجرافيا الكاملة لمـا كتب هذا الرجل وما كتب عنه .

دكتور محمد الجوادى

نائب طب القلب كلية

طب القاهرة والزقازيق

الباب الأول

حياة نجيب محفوظ

ولد الدكتور نجيب محفوظ يوم الخميس الخامس من يناير سنة اثنين وثمانين وثمانمئة وألف (١٨٨٢) فى مدينة المنصورة فى بيت مطل على النيل ، لوالدة فى الخامسة والأربعين من عمرها كان لها قبله سبعة أولاد ، وقد لبثت فى مخاضها ثلاثة أيام بلياليها .

ولادة ضعيف :

خرج نجيب محفوظ من بطن أمه مسترخيا كل الاسترخاء ، ويداه مبسوطتان لا نبض فيهما ، ولا تنفس له فى حالة تسمى « بالاسفكسيا البيضاء » فغلب على ظن الطبيب والمولدة أن المولود قد فقد الحياة ووضعاه فى اناء بجانب الشباك من دون أن يقطعوا حبله السرى والتفتوا الى العناية بالوالدة .

وبينما (ذلك الشىء الصغير) كذلك اذ جاءت خالته فلاحظت أنه يتنفس ولكن على ضعف ، فأسرت بما لاحظت الى المولدة التى أخذت تعمل على انعاشه بما أمكنها من الوسائل حتى دبت فيه روح الحياة . وان بقى أثر البرد والشتاء قاسيا على صحته بشكل ملحوظ طيلة الشهرين الأولين من حياته .

من مدرسة الى اخرى :

بدأ نجيب محفوظ دراسته فى مدرسة الأمريكان بالمنصورة ، اذ كان زوج أخته المسيو تادرس هو ناظر هذه المدرسة ، وكانت مدارس الأمريكان فى ذلك الوقت لا تعنى باعداد الطلبة لنيل الشهادات فحسب ، وانما تهدف الى تنمية الثقافة العامة فى نفوس طلابها ، وهو نسق لم يكن بالمعهود فى معاهد التعليم المصرية الموازية ، وقد اسهمت هذه المدرسة بلاشك فى خلق شخصية نجيب محفوظ التى استمرت حتى التسعين ! فقد كان للأدب وقراءته حظ وافر من برامج هذه المدرسة ، وكذلك اللغات ، وبالاضافة الى ذلك كان « المرسلون » يعنون بالخلق القويم ، وباقناع التلاميذ بشتى الطرق بالاقلاع عن تصديق الخرافات العجائزية من سحر وحسد وجن ، وقد صادفت دراسة الأمريكان هوى فى نفس نجيب محفوظ « الى أن سأله معلم الجغرافية ذات يوم عن عاصمة بلوخستان فلم يجب فعنفه تعنيفا صارما لم يجد له صاحبنا مبررا فخرج بعده الى والده وأخبره بما حدث وطلب اليه أن يساعده على ترك المدرسة التى لن تحقق له أمله فى الحصول على الشهادة الابتدائية التى تؤهله للالتحاق بالثانوى فمدرسة الطب » ، فوافقه الأب على رأيه .

وانتقل « نجيب » الى المدرسة الأميرية الابتدائية

بالمنصورة (١٨٩٣) وهناك ظهر تفوقه على أقرانه • وكان أستاذ اللغة العربية فى المدرسة علما من أعلام الأزهر • هو « الشيخ محمد المهدى » الذى صار فيما بعد أستاذا بمدرسة القضاء الشرعى دائم الاعجاب بمواهب نجيب محفوظ فى الانشاء •

وكان ناظر مدرسة المنصورة الابتدائية لذلك العهد هو المرحوم أحمد بك نجيب ، الذى خلف المرحوم « أمين أفندى سامى » وكان عسكريا فى نظامه ، فكان طابور الصباح تجربة قاسية لتلاميذه ، لأنه كان يشق الصفوف كأنه ضابط عظيم فاذا رأى حذاء غير لامع ، أو وقفة غير منتصبة ، لم يسلم صاحبها من لطمة أو ضربة بالمسطرة •

وفى نهاية سنة ١٨٩٥ سافر تلاميذ السنة الرابعة ليؤدوا امتحان الشهادة الابتدائية بالقاهرة ••• سافر « أبناء الذوات » منهم بالدرجة الثانية وسافر الباقون فى الدرجة الثالثة ، فلما ظهرت النتيجة لم ينجح أحد من ركاب الدرجة الثانية !

وهكذا جمع نجيب محفوظ منذ بداية تعليمه العام بين مزايا نوعين منه ، ولو قدر له أن يمضى فى أحدهما من البداية الى النهاية لما كان ــ فى الغالب ــ ليكون له ذلك المستقبل الباهر الذى حققه ، حين اتيح له أن يجمع الى رفعة العلم ، رفعة

فى الشخصية وتكوينها وسعة فى الأفق أسهمت فى تكوينها ـ هاتان الدراستان المتباينتان ، بكل ما فى كليهما من فضائل ومميزات ، وبتباينهما كذلك ، فلا مراء أن الفتى الذى يتاح له أن يقارن ـ بينه وبين نفسه ـ بين المتباينات قريبة الأثر من حياته يخرج الى الدنيا من بعد ذلك بأفق فيه من السعة قدر كبير .

عاش نجيب محفوظ طفولة لم تخل من المباهج ، وحين تحدث عن طفولته فى كتابه كان حريصا على أن يسجل « أنه كان يقرأ كثيرا ، فى مكتبة والده ، ومن الصحف والمجلات العلمية الدورية التى كانت مع زوج أخته المسيو تادرس » ، قرأ نجيب محفوظ من أعداد مجلة المقتطف ، تلك التى كانت فيها مقالات الأستاذ الكبير شبلى شميل ، وهى المقالات التى ترتبط فى أذهان مثقفينا بالتطور ، وداروين ، فقد كان شبلى شميل من أوائل المبشرين بها ، ولكن نجيب محفوظ يضيف الى هذه مقالات شميل عن اكتشاف كوخ لميكروب الدرن .. ويذكر نجيب محفوظ أنه « اختار دراسة الطب عن طريق القراءة » .

ويعتز عالمنا بأن يروى أنه قرأ فى مكتبة والده ما صدر من كتب المؤتمر الذى عقد فى الهند بين المسيحيين والمسلمين مثل « اظهار الحق » ، « الهداية » ، « سوسنة سليمان فى أصول العقائد والأديان » ، « معانى الصلاة » .. ولكن نجيب محفوظ

يذكر أن أكثر الكتب التى لايزال يدين لها بالحب مما قرأ فى صباه هى كتب الأدب العربى القديم •

أزمـة عاصـفة :

كان والد نجيب محفوظ من تجـار المنصـورة ، الذين يمارسون تجارة المحاصيل الزراعية وبصفة أساسية ، القطن ، وكانت المنصورة من عواصم التجـارة ذات الشأن ، وكان فيها كثير من الطليان واليونان ، اتصل بهم والد نجيب محفوظ ، وتدعمت صلته بهم ، ووثقوا به ، وعهدوا اليه بكثير من شـئون حساباتهم وماليا تهم ، فانهال عليه الكسب ، وعاش مع أسرته فى رغد من العيش ••• ولكن هـذا الوالد لم يلبث أن توفى ، وهو فى الثالثة والخمسين من عمره ، وكان نجيب لايزال صغيرا ، وكذلك أشقاؤه ، فأحيلت أمورهم وممتلكاتهم على أوصـياء ، يصفهم نجيب محفوظ بأنهم لم « يتمتعوا بحظ من الأمانـة يحول بينهم وبين أكل أموال اليتامى والتفريط » ، واسـتولى هؤلاء على أموال الصغار ، ونعموا بها ، واضطر شقيقه الكبير الذى كان يكبر نجيب بخمس سـنوات الى قطع دراسـته فى المدرسة الخديوية ليعمل فى وزارة الاشـغال بمرتب قدره ستة جنيهـات •

وما هى الا ثلاث سنوات حتى لحقت الوالدة بالوالد بعد ما أصابها مرض السكر ، وتبين لنجيب وأخواته « أن التركة مثقلة ، فباعوا العقارات ، وبعض الفدادين » •